الاستراتيجيات القرائية المعاصرة في الواقع النقدي الغربي المعاصر؛ النقد الثقافي واستراتيجيّة كشف الأنساق المُضمرة

د. سليم حيولة.

جامعة المدية

الملخّص:

تقوم هذه الدراسة بمحاولة فهم استراتيجية النقد الثقافي وطريقتها في مقاربة النصوص الأدبية مع محاولة البحث عن كيفية تبلورها من خلال فكر ما بعد البنوية الذي قام على فصل الدال عن المدلول، وكذلك التفكيكية التي تقوم على تفكيك البنى الفكرية الغربية فيما يتعلّق بالحقيقة والواقع وكيفية إدراكهما، كما أنه يعود إلى ما جاء به ميشال فوكو فيما يتعلّق بمفهوم الخطاب والسلطة وكذلك إلى جهود أنطونيو غرمشي في توضيح كيفية مساهمة الطبقة الحاكمة في الهيمنة على الطبقة المحكومة عن طريق الثقافة، بالإضافة إلى ما تركه فلاسفة مدرسة فرانكفورت فيما يتعلّق بصناعة الثقافة .

Résumé:

Cette étude cherche à comprendre la stratégie de la critique culturelle a l'approche des textes littéraires et à essayer de trouver les fondements épistémologiques qui sont a la base de sa genèse comme la post-structuralisme qui a été basé sur la séparation du signifiant du signifié, ainsi que la déconstruction, qui est basé sur le démantèlement des structures intellectuelles occidentales à l'égard de la vérité et de la réalité ,comme elle est due à ce qu'il dit Michel Foucault sur la notion de discours et du pouvoir, ainsi qu' à Antonio Gramsci et ses efforts pour clarifier la façon dont la classe dirigeante contribua a dominer la classe dominée à travers la culture, en plus de ce que les philosophes de l'école de Francfort qui ont travailler sur l'industrie culturelle .

*** *** ***

قبل تطبيق منهجية قرائية معينة لابد أن تسبقها تطبيق استراتيجية من أجل خلخلة البنية الفكرية للنصّ المقصود بالدراسة ومحاولة كشف باطنه ولاوعيه بحسب تعبير المحلّل النفساني سيغموند فرويد ويحتل النقد الثقافي أهمية كبرى

في هذا المجال وذلك باعتباره استراتيجية تسبق المنهجية وتوفّر لها الأرضية الفكرية وذلك عن طريق ممارسته لحفر أركيولوجي بحسب تعبير المفكّر الفرنسي ميشال فوكو وذلك بهدف الكشف عن الأسس الفكرية والثقافية التي قام عليها النص قبل أية مقاربة نقدية تالية .

أوّلا: النقد الثقافي كاستراتيجية قرائية مابعد بنوية

من أجل الإحاطة الجيّدة بأية استراتيجية قرائية أو منهج نقدي وجب أن نبحث في أصولها الفكرية وأسسها التي ساهمت في ظهورها واتّخاذها شكلها النهائي، وهي السبيل الأوحد من أجل فهمها فهما جيدا، وفي قضية النقد الثقافي كان لابد من معرفة السياق العام الذي ظهر في أثنائه وخصوصا في علاقاته بالثقافة الأوروبية، بالإضافة إلى أن الإحاطة باستراتيجيّته وبأفكاره ومفاهيمه وإدراك المقولات التي تأسّس عليها تستلزم منّا الانتباه للمقاربات التي تشترك معه في المهمّة نفسها أو التي يمكن أن يكون قد استُخلص منها مثل الأدب المقارن، وكذلك علاقاته بمجالات أخرى من ضمنها الدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية والنقد الزنجي والدراسات النسوية وغيرها .

يعتبر النقد الثقافي إحدى نتائج مابعد البنوية في الفكر الغربي المعاصر وبعبارة أخرى هو نتيجة من نتائج التفكيكية التي تُقرن دائما بمايعد البنوية، بل إن مقولاته وآلياته الاستراتيجية في التحليل هي مستوحاة من التفكيكية نفسها، ولا يمكن للقارئ أن يفهم النقد الثقافي كاستراتيجية قرائية تستهدف كشف الأنساق الثقافية في النصوص الأدبية إلا بالعودة إلى ماجاء به الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا في كلّ ما كتبه، وخصوصا فكرته التي تقوم على خلخلة بنيات النص الفكرية للوصول إلى المسكوت عنه والخفي من المفاهيم والأفكار التي تُكوّن "**لاشعور**" النصوص الأدبية.

وإن البداية الفعلية للنقد الموسوم بالثقافي كانت بعد «**إعلان نقّاد تحوُّلهم عن البينوية أو تبنّيهم الصريح للنقد الثقافي أو النقد النّسوي أو النقد ما بعد الكولونيالي**»1. فقد ظهرت هذه الاستراتيجية القرائية غير المعهودة بعد التحوُّل من البنوية إلى مابعد البنوية في الفكر الغربي المعاصر وقد تأثّرت الدراسات الأدبية بهذا التحوّل وعملت على استثمار مقولات مفكري ما بعد البنوية

كجاك ديريدا وميشال فوكو وجاك لاكان ولويس ألتوسير، تبلورت عنها استراتيجية قرائية موسومة بالثقافية والتي اتّسع تناولها إلى مجالات النقد النسوي والنقد الكولونيالي ثم مابعد الكولونيالي .

وهكذا أصبح النقد الثقافي استراتيجية عزفت عن الاهتمام بتحليل النصوص الأدبية بطريقة لغوية أو بلاغية أو أسلوبية بهدف توضيح معناها أو شرح لغتها وإظهار مواطن الجمال فيها مثلما كان يفعل النقد الأدبي، بل أصبح النصّ محورا للبحث عن الأنساق الثقافية المضمرة، وأصبحت مهمّة الناقد تتمثّل في النّظر للنصّ باعتباره من إنتاج الثقافة التي ظهر فيها؛ الثقافة بكلّ مكوّناتها؛ التاريخية والفكرية والاجتماعية والذهنية، فالنصّ في نظر النقّاد الثقافيين هو نتاج الثقافة ونتيجة من نتائجها .

كما يمكن الإشارة في هذا المجال إلى التأثير الكبير الذي مارسه الفيلسوف الفرنسي الآخر ميشال فوكو وخصوصا بمفهومه للخطاب" discours "، فقد حاول من خلال منظومة نقدية متناسقة كشف أنظمة الخطابات الفكرية والعلمية والإنسانية، وهو عمل ينحو به نحو التحليل الثقافي الشامل، وأصبحت جهوده وأفكاره اليوم تحتلّ جانباً مهماً من اهتمام الأكاديميين ورجال النقد الأدبي في الجامعات الغربية وخصوصاً الأمريكية منها، وقد استفاد النقد الثقافي من كل ذلك حيث أصبح ينمو نموّا كبيرا واتّسع لتشمل دراساته حقولاً معرفية عديدة مثل: الدراسات المختصّة بالسود والمرأة.

وقد استلهم "المفكّر الأمريكي ذي الأصول الفلسطينية إدوارد سعيد من خلال كتابه "**الاستشراق**" المقولات الفوكوية فأصبح كتابه المؤلَّف الأول في هذا المجال، ولا يمكن الحديث عن النقد الثقافي دون الإشارة إليه، وقد قام فيه بكشف البنيات الفكرية للتراث الغربي الإبداعي والفكري والسّياسي والاجتماعي محاولا البحث عن كيفية تمثيل ذلك التراث وتصويره للشرق، كمنطقة جغرافية تمّ فيها الفصل بين كيانين هما الشرق والغرب، وعمل فيه على توضيح«**العلاقة ما بين المجتمع والتاريخ والنصوصية، من حيث إن صورة الشرق في الغرب تربط خطاب الاستشراق في أبعاد إيديولوجية وسياسية متداخلة مع منطق القوة**»2. فالتراث الغربي –ككلّ- قدّم صورة عن الإنسان الشرقي وعن الشرق

كفضاء وكانت نتيجة تبلور مجموعة من المفاهيم تعبر عنه ولم تكن تعبر عن حقيقته وذلك خدمة لأهداف سياسية واستعمارية غربية غير مكشوفة، وهنا يظهر تأثر إدوارد سعيد الكبير بجاك ديريدا فيما يتعلق بفصم العلاقة بين الدوال ومدلولاتها في تصوير الغرب للشرق، لأن الشرق كعلامة على منطقة جغرافية أو إنسان شرقي لم يكن مدلوله ما يُعرف لدى الأوروبيين عنه بل كان نتيجة مخيّلتهم، رأوه كما أرادوا أن يروه ولا يمكن لصورته هذه أن تُطابق الواقع الفعلي له .

النقد الثقافي استراتيجية قرائية تهدف إلى تفكيك البنية الفكرية للنصوص الغربية بهدف الكشف عن الأنساق الثقافية التي تشتغل داخل كيان تلك النصوص، وعن طريق هذه العملية يقوم النقد الثقافي بممارسة « **القراءة والتّحليل والنقد على مستويين معاً، وفي آن واحد، ينقد الخطاب النقدي القائم كمؤسّسة وكانحيازات، ويقتحم الآفاق الأخرى التي لم يكن أحد يراها**»3. فهو يعمل على كشف كل أشكال المسكوت عنه في تلك النصوص ويحاول إنطاقه من أجل إظهار أن رؤية الغربي للشرقي ماهي إلا نتيجة لثقافته وللمفهومات التي تحملها ولا يمكنها أن تعبر عن حقيقة الشرقي أو صورته، ولذلك يعد "**الاستشراق**" مؤلَّفا ذا أهمية بالغة في دراسة الخطابات وإظهار بناها الفكرية الخفية التي تكرّست عبر التاريخ .

ثانيا: الأسس المعرفية التي ساهمت في ظهور النقد الثقافي :

ومن أجل فهم جيد لاستراتيجية النقد الثقافي في مقاربة النصوص الأدبية كان من اللازم علينا أن نحاول فهم أصولها المعرفية، فهو كشكل من التناول نتيجة لفكر ما بعد الحداثة وما بعد البنوية وخاصة التفكيكية، وكذلك الجهود النقدية لفلاسفة مدرسة فرانكفورت وتطبيقات أقطاب الدراسات الثقافية بإنكلترا، وتنظيرات النظرية الأدبية المعاصرة وكذلك القراءات الجديدة مع الناقد الفرنسي رولان بارث.

– ما بعد البنوية ؛ تفكيكية جاك ديريدا ؛كشف البنية الثقافية الخفية للنص

إن مابعد البنوية هي ذلك الفكر الجديد القائم على التحوّل عن البنيوية التي جعلت العلاقة متلازمة بين الدال والمدلول بينما مابعد البنوية قامت على الفصل بينهما، فأصبحت الدوال لا مدلولات لها، أو مدلولاته مرجأة إلى حين بتعبير التفكيكين، وقد ترك هذا الفكر الجديد أثره الواضح «**على الدراسات الإنسانية وهو أثر تمثّل في التوجه إلى إغفال القضايا الجمالية واعتماد مداخل نقدية ترى في النصوص الأدبية تحديدا نتاجا لصراعات أيديولوجية وتاريخية**»4. وهذا هو ما يحاول النقد الثقافي الكشف عنه وتوضيحه من خلال تناول النصوص الأدبية، حيث لم يعد ينظر للأدب كنصوص جمالية بل أصبح يدرسها من أجل كشف بواطنها وأنساقها الثقافية الخفية؛ السياسية والإيديولوجية والفكرية، والتي هي–في نهاية المطاف- نتيجة من نتائج الثقافة بمعناها الواسع.

وأبرز من يُعبّر عن فكر ما بعد البنوية هو الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا الذي ولد في الجزائر سنة 1930 وتخصّص في تاريخ الفلسفة ثم انتقل إلى فرنسا وواصل نشاطاته الفكرية مؤلّفا عددا كبيرا من الكتب أبان فيها عن ذكاء حاد وقدرة عجيبة على استقراء، ليس تاريخ الفلسفة الغربية فحسب، وإنما التراث الغربي منذ اليونان إلى حدود الفترة التي عاش فيها، وكان من نتائجها استراتيجية التفكيك التي جاء بها وهي استراتيجية قرائية لكل النُّصوص مهما كان نوعها.

والتفكيك الذي جاء به ليس منهجية قرائية كما أنه ليس نموذجا قرائيا وإنما هي استراتيجية توصّل إليها ديريدا معبّرا عن روح فكر مابعد البنوية في فصله المدلول عن الدال ففي حين رأت البنوية في الفكر الغربي عموما وفي النقد الأدبي على الخصوص أن الدال يدل على مدلوله فإن ديريدا يرى أن الدوال لا مدلولات لها حيث يخوض «**نقده بإنكار قدرتنا على الوصول بالطرق التقليدية إلى حل لمشكلة الإحالة** Référence **أي قدرة اللفظ على إحالتنا إلى أي شيء ما خارجه فهو ينكر أن اللغة "منزل الوجود"** House of Being»5. فالدال في نظر

ديريدا ومن خلال تفكيكيته لا يُحيل إلى مدلول خارج اللغة أو بعبارة أوضح فإن مدلوله غير واضح بالرغم من أن النصوص جعلته يبدو كذلك، وهو إذ يقوم بهذا العمل فإنه يهدف إلى توضيح أن التراث الغربي كرَّس مجموعة من المفاهيم أصبحت تبدو دلالة على مرجع ما وتحيل إلى معنى معيّن ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، من مثل الحقيقة والإنسان والله، والإنسان الأوروبي والخير والشرّ والإيمان والكفر، وقد استفاد من هذه المقاربة المفكّر إدوارد سعيد في تناوله لمفهوم الشرق في الفكر الأوروبي، وهي فكرة أوضحها في كلّ ما كتبه، ومنه يخلص إلى أن إحالة الدال إلى مدلوله ضائعة، وبعبارة أخرى ليس هناك معنى معيّن تُحيل إليه العلامة .

وبناء على هذا قام ديريدا من خلال قراءة التراث الغربي العلمي والفكري والإبداعي خلص إلى أن ما رسّخه ذلك التراث من مقولات هي في الحقيقة لا تعبر سوى عن وجهة نظر وإحالة لا تُتبّين حقيقتها وبهذا فـ«**التفكيكية تأخذ على عاتقها قراءة مزدوجة فهي تصف الطرق التي تُوضع بواسطتها المقولات التي تقوم عليها أفكار النصّ الذي تُحلّله (هذه التفكيكة) موضع التساؤل، وتستخدم نظام الأفكار التي يسعى النص في نطاقها إلى أن يُنتج مركبات فكرية...وهي المركّبات التي تضع هي الأخرى اتّساق ذلك النظام موضع التساؤل**»6. فقد قام التراث الغربي ببناء مجموعة من المفاهيم أصبحت ملازمة له وهي تعبّر عن علاقة الدال بالمدلول وهي علاقة لا يمكن لها أن تنفصم أو تتلاشى مكرّسا بذلك مجموعة من الرؤى فيما يتعلق بالعالم الآخر الميتافيزيقي وبالذات والآخر والتّطور وغيرها من المفاهيم، وأصبحت تلك المقولات مسلَّمات تعقل بها الذات الغربية الواقع والتاريخ كما تنظر بها لنفسها وللآخر. وقد توصّل ديريدا إلى هذه الأفكار نتيجة قراءته العميقة للتراث الغربي حيث إنه «**قارئ ومفسّر. ولقد غدت قراءاته للعديد من النصوص روسو سوسير فرويد، أفلاطون، جينيه، هيغل، مارميه هوسيرل، ج.ل.أوستن، كانط- غدت لمن تهمّهم مغامرات العقل تحليلات مثالية، ونماذج تُحتذى لنوع جديد من التفسير...وهذا النمط من القراءة والكتابة يفرض نفسه في مجال النقد الأدبي على نحو خاص**»7. فهو قارئ مُجدّ للتراث الغربي وقد أوصلته قراءاته تلك إلى

اكتشاف أهمية المقولات التي استقرّت في بنيته وأصبحت مسلّمات وغدت مفاهيم لا تقبل النقض، بينما حقيقة الأمر بخلاف ذلك لأنها مقولات قائمة على ارتباط الدوال بمدلولاتها وإذا قمنا بتفحصها وتفكيكها بالعبارة التي يفضل استعمالها فإنها تغدو مفرغة من مدلولاتها وإحالتها غير مُنتهية وهو ما يسمّيه بـ"**الإرجاء**" أي إرجاء معنى العلامة .

ولعل الفائدة الكبرى لاستراتيجية التفكيك التي مارسها ديريدا في قراءته للتراث الغربي تكمن في أنها يمكن الاستفادة منها في تحليل الأدب وكشف بنيته الفكرية حيث إن ممارسته هذه بلغت «**الذروة في ثمانيات القرن الماضي، حين تم تطبيق المقولات التفكيكية في الأدب على أيدي النقاد الأمريكيين: بول دي مان، جوفري هارتمان، هيلس ميلر**»8.وهكذا استطاعت التفكيكية أن تكون طريقة لتفكيك بنية النصوص الأدبية ووضع دوالها موضع المساءلة من أجل فهم دلالة تلك النصوص ومعانيها التي كانت تبدو من المسلّمات عبر تاريخ الفكر الغربي، وهكذا غدت التفكيكية طريقة واستراتيجية لقراءة النصوص قبل ممارسة أية منهجية قرائية حداثية، فهي في مجمل القول «**طريقة متغيّرة على الدّوام أو استراتيجية كما يحلو لدريدا أن يدعوها تتوخّى النّقد والتّقويض والهدم وقلب المعادلات والثنائيات والتحرّك نحو المناطق المسكوت عنها في فضاءات النصوص...التفكيك-بعكس ما يشاع عنه-هو -في جوهره- ممارسة سياسية. يتمخّض عنها رؤية مختلفة عن الرواية السائدة للخطاب المُهيمن حيث يبدو فيها العالم مختلفا، كما تبدو أشياء، باعتبارها نتاجا لتاريخ أوسع وأعمق؛ آثار اللغة والوعي والمؤسسات الاجتماعية وممارسة الأقطاب المهيمنة**»9. فمن خلال الآليات التي يطبّقها ديريدا مثل النقد والتقويض والهدم وقلب المعادلات والثنائيات(الدال/ المدلول) والغوص في المناطق المسكوت عنها في الخطابات سواء الفكرية منها أو العلمية أو الأدبية تُصبح مهمّة المفكّك الكشف عن مقولات النصوص التي هي في حقيقتها من إنتاج قوة مهيمنة وسائدة عملت على تكريس مفاهيم معينة وعملت على توجيه الناس من خلالها وهي في نهاية المطاف لا تعبّر عن الحقيقة وإنما عن رأي المؤسّسات المهيمنة سواء أكانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو إيديولوجية أو غيرها، وهو ما يمكن استثماره في الأدب باعتباره

خطابا مؤسّساتيا يجب فيه خرق العلاقة الوثيقة بين الدال والمدلول ليتم اكتشاف بنيته الفكرية الخفية.

إن التفكيكية كاستراتيجية قرائية تسبق المنهجية التي تستهدف مقاربة النصوص الأدبية من خلال قراءتها للأدب باعتباره مؤسّسة قائمة على ترسيخ وتكريس مجموعة من المفاهيم القائمة في الفكر بحكم تواصله وسيرورته التاريخية والتي تمّ تناقلها من قبل الكتُّاب والشُّعراء، ولكنّها –في حقيقتها- ما هي سوى من إنتاج سلطة مؤسّساتية ما، كامنة في الثقافة ولا تُعبّر عن الحقيقة، بل تُعبّر عن وجهة نظر تلك المؤسّسة، وهكذا فإن «**إن معاينة الدّراسات النقدية والفلسفية التي تُنشر هنا وهناك تكشف عن التأثير الخلاق للقراءة التَّفكيكية ومقوّماتها في مقاربة الخطابات المختلفة لما تضعه بين أيدي المفكّك من مفهومات ومقولات ملائمة للقيام بعمليات التقويض والهدم والقبض على ما صَمت عنه من أفكار المؤلّفين والكتاب...ولهذا لا يُعد التفكيك استراتيجية بمبادئ عديمة...بل إن دريدا يصرُّ على منح التفكيك جانبا إيجابيا يُحرّرنا من أوهام مزعومة وأصل واحد عتيد وحقيقة ندَّعيها ونتمسَّك بها، يُوضّح التفكيك أن الخطابات تصنع عالما موهوما سرعان ما يتقمَّص دور قوَّة متعالية تُمارس الاستبداد علينا، وتقهرنا بأسماء مختلفة ك"المبدأ الأول"أو"الحقيقة"أو"المقدس"**»10. فالتفكيكية-كما يراها ديريدا- عملية مهمة تسبق المنهجية القرائية وتتصدّر قراءاتنا للتراث من أجل كشف المسكوت عنه والأنساق الخفية التي استقرت في الخطابات الأدبية وغدت في حكم المسلّمات حيث تقوم-كما يرى-بتحريرنا من الأوهام التي هي نتيجة تكريس الخطاب لها وتنفي وجود أصل للأشياء كما تهدم كل مفهوم اعتقدنا أنه حقيقة .

ومن أجل التوضيح أكثر فإن دريدا يرى أن تفكيكيته تُركّز على البحث في البنيات المؤسّساتية والفكرية والذهنية التي ظهرت في الفكر الأوروبي؛ الأمر الذي جعله يرى أنها «**تُهاجم الصرح الداخلي، سواء الشكلي أو المعنوي للوحدات الأساسية للتفكير الفلسفي، بل وتُهاجم ظروف الممارسة الخارجية، أي الأشكال التاريخية للنَّسق التربوي لهذا الصَّرح والبنيات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية لتلك المؤسسة التربوية**»11. فالهدف من التفكيكية إذن هو تهديم

كل المفاهيم التي تكوّن بنية الفكر الغربي والتي كانت سببا في فهمه للحقيقة وإدراكه وللواقع وكذلك في نظرته لنفسه وللآخر والتي صارت أنساقا ثقافية تتغلغل نصوصَ الثقافة الغربية. والتفكيكية بهذا المعنى «**تُشكّل هجوما كاسحا على الأفكار العادية بشأن النّسبة إلى مؤلف، والهوية، والذات...**»12. وهي بهذا المعنى تُعتبر مدخلا مهما لفهم النقد الثقافي.

- **ميشال فوكو: الخطاب والسلطة**

يُعتبر المفكر الفرنسي الآخر ميشال فوكو من بين أهمّ من أثّروا بما جاء به من مفاهيم في الواقع النقدي المعاصر، وهو من خلال إنتاجه الكبير ومؤلّفاته الجادّة يمكن القول إنه قد فتح مجالات بحثية لا يُستهان بها في إدراك تاريخ الخطابات وأسباب ظهورها والمعاني التي تُخفيها، فهو قد ركّز في دراسته «**على تاريخ الأنظمة الاجتماعية والسياسية والخطابات**»13. وهي الأنظمة التي تكوّن جوهر الثقافة الغربية، كما يمكن القول بصفة عامة إن أفكاره «**هي قبل كل شيء فلسفة الذات، المرتبطة بمجموعة الآليات السلطوية المختلفة داخل الحضارة الغربية**»14. فهو يبحث في علاقة الخطابات المختلفة بمراكز السلطة والقوّة ممّا يُتيح لنا فهمها وفهم سبب ظهورها .

ولأجل هذا جاء فوكو بمفهوم الخطاب، واستعمله في بحوثه وهو كما يرى «**يُشير إلى نظام منضبط من الأقوال التي لا يمكن تحليلها ليس فقط وفقا لقواعد تكوينه الداخلي، وإنما أيضا بوصفه مجموعة من الممارسات داخل وسط اجتماعي. إن الخطاب هو تآلف من الممارسة، وصيغة أو بنية من الكلام**»15. فالخطاب بالنسبة له عبارة عن مجموعة من المفاهيم تبدو من المسلّمات، ويهتمّ بها من أجل كشف مختلف التأثيرات التي يُحدثها في ذهن الإنسان وباعتبارها مسلَّمات تُصدرها مؤسّسات تضمن سيرورة الخطاب وتأثيراته، مثل ذلك مؤسسات التعليم والسياسة والدين والقانون وغيرها .

- **فلاسفة مدرسة فرانكفورت**

تُعتبر مدرسة فرانكوفوت ومن خلال فلاسفتها من أهم المدارس في القرن العشرين حيث ركّزت فيما جاء به وخصوصا في نظريتها الجمالية حول أهمية

الثقافة وخطورتها في العالم المعاصر، وكيف يمكن بها التأثير على الإنسان من خلال تحديد أفكاره وبناه الذهنية، وإن الحديث عن أقطاب المدرسة حديث عن«**أعمال أولئك الفلاسفة والنقّاد الثقافيين والعلماء الاجتماعيين**»16. فأمثال ماكس هوركهايمر وثيودور أدورنو وفالتر بنيامين وغيرهم، عملوا على توضيح المعنى التسلطي للثقافة على تفكير الإنسان وقد اهتمّ جل أعضائها « **بنقد الثقافة...بما لها من اهتمام بالجماهير وكيفية الهيمنة عليها**»17. فقد كانوا واعين بما تُمثله الثقافة المنتشرة بين الجمهور في حياة المجتمعات من إحكام وسيطرة، وبيّنوا أن الثقافة تحمل في طياتها عناصر هيمنة على الإنسان ناقدين – في الوقت نفسه- فكر التنوير الذي أوهم الناس بأمور أصبحت بمرور الوقت سببا في كبح حريته وتقييده .

- **أنطونيو غرامشي:السلطة والهيمنة**

لا يجب إغفال الدور الكبير للتحليل الذي قدّمه المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي والذي كان الأمين العام للحزب الشيوعي في إيطاليا وهو تحليل بيّن الدور الهام للثقافة في الواقع الاجتماعي المعاصر حين قام بتحليل أثر الثقافة في المجتمعات الأوروبية المعاصرة، وقد« **نُشرت"كراسات السجن" لأنطونيو غرامشي، ولأن غرامشي كان بالنسبة للحزب الشيوعي قائدا سياسيا أكثر منه مُنظّرا، فإن أصالة تحليله الثقافي ظلت مجهولة في ذلك الوقت**»18. والتحليل الذي قدّمه يهدف إلى توضيح كيفية ممارسة الهيمنة الثقافية من قبل الطبقات الحاكمة في حقّ المحكومين عن طريق الثقافة، كما يهدف إلى تبيين الاستراتيجية التي تتبعها الطبقة الحاكمة من أجل جعل المحكومين تابعين لها، وذلك من خلال «**قدرة السلطة الدّائمة على تشكيل المفهوم الذاتي والقيم والأنظمة السياسية وشخصيات الشعب ككل حتى بعد فترة طويلة من زوال المصدر الخارجي لتلك السلطة**»19. وهكذا يتم التمكين لإيديولوجيتها وفرضها على الطبقة المحكومة من خلال الثقافة .

- **النظرية الأدبية المعاصرة**

لقد كانت جهودات جاك ديريدا وميشال فوكو وأنطونيو غرامشي وأفكار فلاسفة مدرسة فرانكفورت قد وفّرت المقولات الهامة وطرق التحليل الثقافي، وقد ساهم أقطاب النظرية الأدبية المعاصرة في التنظير لكل ذلك، حيث إن الإحاطة بمقولاتها المعاصرة هو اطلاع على مجمل القضايا التي صارت من أهمّ اهتمامات الإنسان المعاصر في علاقته بالواقع وبالتاريخ وبالدين وحتّى بالإنسان نفسه، ولذلك فقد اهتمت النظرية الأدبية لدى تيري إيغلتون وفريديريك جيمسون بـ«**ضرورة تطوير شكل من البحث ينظر في أنظمة الدواليل والممارسات الدالة المتنوعة في مجتمعنا**»20. فقد عملت من خلال جهود عدد كبير من المنظرين النقديين على تغيير طبيعة التناول للأدب أصبح معه المجال مفتوحا للنقد الثقافي الذي غدا « **مفهوما لا يستقيم بدون فهم لمعنى (النظرية) التي أخذت مجموعة من المسارات والسياقات**»21. وهو ما يُعبر عن التطورات التي لحقت النظرية الأدبية المعاصرة وتحوّلها عن النقد الجمالي إلى النقد الثقافي الشامل .

- **رولان بارث**

يُعتبر رولان بارث من بين أبرز الذين أثّروا في مسيرة الفكر الأوروبي المعاصر، وذلك من خلال الأعمال التي قام بها والمؤلّفات الكثيرة التي كتبها، وكذلك إلى المجالات الجديدة التي كانت محورا لدراساته المتعدّدة، حيث قام بتوجيه الأنظار لقضايا لم يتمّ الاهتمام بها من قبل، وقد اختصّ بالبحث في الأدب وتحليل النصوص محاولا اكتشاف قواعدها وقوانينها وشروط وجودها حيث إن«**قراءته معناها اكتساب قدرة أعظم على التفكير الذكيّ الممتع حول ماهية الأدب، حول كل من ممارسة الكتابة ووظيفتها. فقد جدَّد النقدَ الأدبي في فرنسا، فصار نشاطا فكريا أكثر تنوعا وفائدة مما كان عليه**»22. فبارث وجَّه الأنظار نحو التحليل الثقافي الذي لم يعد ينظر للجوانب الجمالية في الأدب وفي كل ما يُنتجه الإنسان من فنون وتعابير فحسب ، بل أصبح همّ الناقد هو الغوص عميقا في خبايا النصوص وكشف منطقها الفكري الذي يُعبّر عن مقولات الثقافة في تقديم المعنى للقارئ .

الهوامش

1- شربل داغر، عن البينوية: نقدا لها في الاحتياج إليها، مجموعة من المؤلفين، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، بينوية أم بينويات؟ المؤسَّسة العربية الدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى، 2007، ص 37/ 38

2- عبد الله محمد الغذامي، النقد الثقافي؛ قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 34/ 35

3- - عبد الله محمد الغذامي، النقد الثقافي، ص41/ 42

4- أندرو باوي، المناظرة الفرنسية الألمانية؛ النظرية النقدية، التأويلية والتفكيكية، ترجمة إسماعيل عبد الغني أحمد، في موسوعة كمبريدرج في النقد الأدبي؛ العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، العدد 919 تحرير :ك. نلوولف، ك. نوريس،ج. أوزبورن، مراجعة وإشراف رضوى عاشور، المشرف العام جابر عصفور، المشروع القومي للترجمة، شارك في الترجمة؛ إسماعيل عبد الغني ومنى عبد الوهاب وهاني حلمي ودعاء إمبابي ومحمد هشام، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2005، ص 191 / 192

5- محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزي عربي، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، 1996، ص 133

6- جوناثان كلر، جاك دريدا، في؛ جون ستروك، البنيوية وما بعدها؛ من ليفي شتراوس إلى دريدا، مقدمة، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، رقم 206، فبراير 1996، ص 199

7- جوناثان كلر، جاك دريدا، في؛ جون ستروك، البنيوية وما بعدها؛ من ليفي شتراوس إلى دريدا، ص 180

8- وائل بركات وغسان السيد ونجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2004، ص 376

9- وائل بركات وغسان السيد ونجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة، 386/ 387

10- وائل بركات وغسان السيد ونجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة ، ص 399

11- جاك ديريدا، نقلا عن؛ عبد الوهاب المسيري، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، سورية دمشق الطبعة الأولى، 2003، ص 111

12- جون ستروك، البنيوية وما بعدها؛ من ليفي شتراوس إلى دريدا، مقدّمة، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، رقم 206، فبراير 1996 ، ص 19

13- ديفيد كارتر، النظرية الأدبية، ترجمة باسل المسالمة، دار التلوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق الطبعة الأولى، 2010 ، ص 114

14- فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، ص 307

15- برندا مارشال، تعليم ما بعد الحداثة :المتخيل والنظرية، ترجمة وتقديم السيد إمام، المشروع القومي للترجمة، مصر المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010 ، ص 130

16- أندرو إدجار وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم والمصطلحات الأساسية ترجمة هناء الجوهري مراجعة وتقديم وتعليق محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة الطبعة الأولى، 2009 ، ص 472

17- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي؛ إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000، ص 200/199

18- ريناته هولب، الحياة الثقافية الإيطالية بعد الحرب العالمية الثانية؛ من الماركسية إلى الدراسات الثقافية، في موسوعة كمبردج، ص 208 / 209

19- دوغلاس روبنسون، الترجمة والإمبراطورية، دوغلاس روبنسون، الترجمة والإمبراطورية؛ نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة ثائر علي ديب الطبعة الثانية، دار الفرقد، دمشق، 2009 ، ص 45

20- تيري إيغلتون، نظرية الأدب "مدخل"، ترجمة ثائر ديب دار المدى. دمشق الطبعة الأولى، 2006، ص 328

21- محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي؛ الكتابة العربية في عالم متغير واقعُها سياقاتها وبناها الشعورية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005 ، ص 20

22- جون ستروك، رولان بارث، في جون ستروك، البنيوية وما بعدها، ص 65

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊